

الإرادة لِكَيْ نُؤْمِنَ

المحاضرة ٦: هل النعمة لا تقاوم؟

أ.ر. سي. سرول

بَعْدَ حَسْمِ الْجَدَلِ الْبِيلاجِيِّ بَيْنَ أَوْغُسطينوس وَبِيلاجيوس، وَبَعْدَمَا أُدِينَ بِيلاجيوس بِالْهَرْطَقَةِ، تَلَّتْ ذَلِكَ الْقَرَارَ مَزِيدٌ مِنَ التَّبَعَاتِ، حِينَ ابْتَدَأَ الْبَعْضُ فِي شَمَالِ أَفريقيَا - ثُمَّ فِي فَرَنسَا فِي النِّهَايَةِ - يُبَدُونَ الْإِعْتِرَاضَاتِ عَلَى رَأْيِ أَوْغُسطينوس عَنِ الْحُطْبَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا رَأْيَهُ عَنِ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ، الَّذِي كَانَ وَثِيقَ الصَّلَاةِ لِلْغَايَةِ بِهِ. تَمَرَّكَزُ رُؤْيُ الْفِعْلِ هَذَا فِي جَنُوبِ فَرَنسَا، مَعَ ظُهُورِ مَا يُعْرَفُ بِاسْمِ "شِبْهِهِ" - كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلًا - شِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ. شَارَكَ الْكَثِيرُونَ فِي هَذِهِ الْحَرْكَةِ. لَكِنَّ قَائِدَهَا كَانَ رَيْسَ دِيرٍ فِي فَرَنسَا، وَيُدْعَى جُونُ كَاسِيَانُ (John Cassian). ك-ا-س-ي-ا-ن. وَاسْمُهُ الرُّومَانِيُّ كَاسِيَانُوس. وَأَحْيَانًا تُسَمَّى شِبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ بِالْكَاسِيَانِيَّةِ (Cassianism). لَكِنَّا نَادِرًا مَا نَسْمَعُ هَذَا الْمُصْطَلَحَ الْيَوْمَ. وَهُوَ يَعُودُ إِلَى تَأْيِيدِ جُونُ كَاسِيَانُوسِ لِهَذِهِ الْحَرْكَةِ.

أَلَّفَ كَاسِيَانُوسُ ١٢ كِتَابًا لِلرَّدِّ وَالْإِعْتِرَاضِ عَلَى لَاهُوتِ أَوْغُسطينوس. وَكَانَ تَحْفُظُهُ الرَّئِيسِيَّ عَلَى لَاهُوتِ أَوْغُسطينوس مُتَعَلِّقًا بِرَأْيِهِ عَنِ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ، لِأَنَّ جُونُ كَاسِيَانُوسَ أَرَادَ تَأْيِيدَ شُمُولِيَّةِ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ السَّاقِطَ مَسْئُولٌ أَخْلَاقِيًّا، إِذْ لَا تَزَالُ لَدَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنَ الْقُدْرَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ عَلَى إِطَاعَةِ أَوْ عَصِيَانِ نَامُوسِ اللَّهِ.

كَانَتْ نَبْرَةُ هَذَا الْجَدَلِ الَّذِي نَشَأَ بَيْنَ أَوْغُسطينوس وَأَتْبَاعِ كَاسِيَانُوسِ أَقْلَ حِدَّةً بِكَثِيرٍ. وَقَالَ الْمُؤَرِّخُونَ الْكَنَسِيَّونَ إِنَّهُ حِينَ تَفَاعَلَ أَوْغُسطينوس مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُعَارِضِينَ لِفِكْرِهِ، كَانَتْ نَبْرَتُهُ أَكْثَرَ وَدَاعَةً مِمَّا كَانَتْ فِي تَفَاعُلِهِ مَعَ أَتْبَاعِ بِيلاجيوس. فَكَمَا ذَكَرْتُ مِنْذُ قَلِيلٍ، الْفِئَاتُ الثَّلَاثُ الْكُبْرَى لِلْفِكْرِ الْمَسِيحِيِّ النِّظَامِيِّ هِيَ الْبِيلاجِيَّةُ، وَالْأَوْغُسطينِيَّةُ، وَشِبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ. فِي حُطُوبِ عَرِيضَةٍ، وَبِحَسَبِ التَّارِيخِ، كَانَتْ الْبِيلاجِيَّةُ الْبَحْتَةُ وَالْبَسِيطَةُ هِيَ مَا اعْتَبَرْتَهُ الْمَسِيحِيَّةُ الْقَوِيْمَةُ لَاهُوتًا غَيْرَ مَسِيحِيَّةٍ، بَلْ وَضَدَ الْمَسِيحِ، لِأَنَّهُ يَرْفُضُ فِكْرَةَ السُّقُوطِ بِرُمَّتِهَا، وَيَقُولُ إِنَّ الْبَشَرَ غَيْرَ السَّاقِطِينَ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ، إِنْ جَاَزَ التَّعْيِيرُ، إِلَى فِدَاءٍ. وَبِالتَّالِي، فَإِنَّ هَذَا الْحُطُوبَ الْعَقِيدِيَّ يَضْرِبُ الْلاهُوتَ الْمَسِيحِيَّ فِي مَقْتَلٍ. وَلِهَذَا اعْتَبِرْتُ كُلَّ أَشْكَالِ الْبِيلاجِيَّةِ الْبَحْتَةِ، فِي الْأَسَاسِ، وَعَبَّرَ التَّارِيخِ، خَارِجَةً عَنِ نِطَاقِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ.

أَمَّا الْجَدَلُ بَيْنَ أَوْغُسطينوس وَكَاسِيَانُوسِ، فَيُعْتَبَرُ جَدَلًا دَاخِلِيًّا بَيْنَ الْمَسِيحِيِّينَ، لِأَنَّنَا عَبَّرَ تَارِيخَ الْكَنِيسَةِ، نَشْهَدُ نِقَاشًا وَجَدَلًا مُسْتَمِرًّا بَيْنَ الْبِيلاجِيَّةِ وَشِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ، وَبَيْنَ الْكَالْفِينِيَّةِ وَالْأَرْمِينِيَّةِ، وَعَبَّرَ ذَلِكَ. وَهُوَ جَدَلٌ يُرَكِّزُ عَلَى الْمَسَائِلِ الْأَسَاسِيَّةِ نَفْسَهَا - آرَاءِ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ السُّقُوطِ، وَآرَاءِ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ حُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ، وَآرَاءِ مُخْتَلِفَةٍ عَنِ الْإِحْتِيَارِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ. لَكِنَّا آرَاءُ تَبَنَّاها بِجِدِّيَّةٍ وَإِخْلَاصٍ مَسِيحِيَّونَ حَقِيقِيَّونَ. إِذْنِ، هَذَا الْجَدَلُ بَيْنَ شِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ

وَالأَوْعُسْطِينِيَّةَ عَائِلِيٍّ، لَكِنَّ سَأْخِرُكُمْ سَرِيْعًا بِأَنَّ كَاسِيَانُوسَ وَأَتْبَاعَهُ أُدْبِنُوا أَيْضًا بِالْهَرْطَقَةِ مِنَ الْكَنِيسَةِ الأُولَى. وَلَمْ يَنْتَهُ هَذَا الْجَدَلُ بِمَوْتِ كَاسِيَانٍ وَأَوْعُسْطِينُوسَ، لَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

مَرَّةً أُخْرَى، كَلَّمَا نَشَأَ جَدَلٌ أَوْ خِلَافٌ فِي الرَّأْيِ اللّاهُوتِيِّ، أَوْ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الحِوَارِ، يُفِيدُنَا أَنْ نَرْجِعَ لِلوَرَاءِ قَلِيلًا، وَنَسْأَلِ الحُضَمَيْنِ المُتَنَازِعَيْنِ فِيمَ يُفَكِّرَانِ: "فِيمَ تُفَكِّرُ هُنَا؟" وَ"فِيمَ تُفَكِّرُ هُنَا؟" مِنَ المُؤَكِّدِ أَنَّكُمْ لَا تَتَّفِقَانِ مَعًا حَوْلَ الإِسْتِنْتِاجِ النّهَائِيِّ، لَكِنَّ رَبِّمَا تَكْتَشِفَانِ أَنَّ بَيْنَكُمَا أَفْكَارًا مُشْتَرَكَةً أَكْثَرَ مِمَّا تُظَنُّنَانِ. فَمِنْ نَاحِيَةِ، أَرَادَ كَاسِيَانِ حِمَايَةَ سُموُليَّةِ نِعْمَةِ اللهِ وَمَسْوَليَّةِ الإِنْسَانِ الأَخْلَاقِيَّةِ. وَقَالَ أَوْعُسْطِينُوسَ: "أَنَا أَيْضًا أُرِيدُ احْتِرَامَ وَحِمَايَةَ مَسْوَليَّةِ الإِنْسَانِ الأَخْلَاقِيَّةِ، لَكِنِّي لَا أَشَاطِرُكَ رَأْيِكَ بِشَأْنِ سُموُليَّةِ نِعْمَةِ اللهِ المُخَلَّصَةِ". فَنِعْمَةُ اللهِ شَامِلَةٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الحُجْمِيعَ يَحْصُلُونَ عَلَى بَعْضِ مَزَايَا رَحْمَةِ اللهِ وَلُطْفِهِ. لَكِنَّ حِينَ يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بِنِعْمَةِ الحُلَاصِ، بِحَسَبِ أَوْعُسْطِينُوسَ، "تَكُونُ نِعْمَةُ اللهِ انْتِقَائِيَّةً".

لِنَنْظُرْ إِلَى الأَصْحَاحِ ٩، مَثَلًا، مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةَ، وَنَقْرًا فِي الآيَةِ ١٠: "وَلَيْسَ ذَلِكَ فَقَطْ، بَلْ رِفْقَهُ أَيْضًا، وَهِيَ حُبْلَى مِنْ وَاحِدٍ وَهُوَ إِسْحَاقُ أُبُونَا. لِأَنَّهُ وَهُمَا لَمْ يُولَدَا بَعْدُ، وَلَا فَعَلَا خَيْرًا أَوْ شَرًّا، لَكِنِّي يَبْتَدَأُ قَصْدُ اللهِ حَسَبَ الإِخْتِيَارِ، لَيْسَ مِنَ الأَعْمَالِ بَلْ مِنَ الَّذِي يَدْعُو، قِيلَ لَهَا: "إِنَّ الكَبِيرَ يُسْتَعْبَدُ لِلصَّغِيرِ". كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: "أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عَيْسُوَ".

ثُمَّ فِي اسْتِيقَاقٍ مِنْ بُولُسَ لِاحْتِجَاجَاتِ الَّذِينَ يَقَرُّونَ هَذَا الكَلَامَ، أَدْلَى بِالتَّعْلِيْقِ التَّالِي: "فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَلَعَلَّ عِنْدَ اللهِ ظُلْمًا؟" هَلِ اللهُ عَيْرٌ مُنْصِفٍ؟ هَلِ ارْتَكَبَ اللهُ ظُلْمًا هُنَا؟ وَكَانَ جَوَابُهُ كالتَّالِي: "حَاشَا لِأَنَّهُ يَقُولُ لِمُوسَى: "إِنِّي أَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ، وَأَتَرَاءُفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءُفُ". فَإِذَا لَيْسَ لِمَنْ يَشَاءُ وَلَا لِمَنْ يَسْعَى، بَلْ لِلَّهِ الَّذِي يَرْحَمُ ... فَإِذَا هُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُقْسِي مَنْ يَشَاءُ".

مَرَّةً أُخْرَى، لَا يَعْني ذَلِكَ أَنَّ اللهَ يُعَامِلُ فَرِيْقًا بِالْعَدْلِ وَيَظْلِمُ فَرِيْقًا أُخَرَ. لَكِنَّهُ إِذْ يَعْتَبِرُ أَنَّ كِلَا الفَرِيْقَيْنِ مُتَمَرِّدٌ عَلَيْهِ، أَيُّ إِنَّهُم جَمِيْعًا خُطَاةٌ سَاقِطُونَ وَمُقَاوِمُونَ لَهُ، يَهَبُ نِعْمَةً لِفَرِيْقٍ، وَيَجْرُمُ الأُخَرَ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ، لِأَسْبَابِهِ الحَاصَّةِ عَيْرِ المَعْرُوفَةِ، بِحَيْثُ يَنَالُ البَعْضُ عَدْلًا، وَالبَعْضُ الأُخَرَ نِعْمَةً.

إِذْنًا، رَفَضَ أَوْعُسْطِينُوسَ سُموُليَّةِ النِّعْمَةِ المُخَلَّصَةِ، لِأَنَّ الكِتَابَ المُقَدَّسَ يَقُولُ بِوُضُوحٍ إِنَّ اللهَ، بِطَرِيقَةٍ حَاصَّةٍ، يُعْطِي نِعْمَةً لِلْبَعْضِ وَلَيْسَ لِلجَمِيْعِ. فَمِنْ حَقِّهِ السِّيَادِيِّ أَنْ يَعْفُو عَمَّنْ يَشَاءُ، لِيُظْهِرَ عُمُقَ وَغِنَى نِعْمَتِهِ. كَانَتْ هَذِهِ هِيَ نِقْطَةُ الخِلَافِ آنَذاك، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى اليَوْمِ.

كُلَّمَا نُوقِشَتْ عَقِيدَةُ الْإِخْتِيَارِ، فَإِنَّ الْمَشْكَالَةَ الَّتِي تَبْرُزُ فِي الْحَالِ، وَالسُّؤَالَ الَّذِي يُطْرَحُ عَلَى الْفُورِ هُوَ: "أَلَا يَبْدُو مِنْ الْإِنْصَافِ أَنْ يُعْطِيَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ لِلْبَعْضِ وَلَيْسَ لِلْجَمِيعِ". يَرَى النَّاسُ، لَيْسَ فَقَطْ فِي أَمْرِيكَ، أَنِّي إِنْ تَرَأَفْتُ عَلَى أَحَدِهِمْ، أَكُونُ مُلْزَمًا بِأَنْ أَتَرَأَفَ عَلَى الْجَمِيعِ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ. لَكِنْ بِالطَّبَعِ، مِنَ الْمَنْظُورِ الْمَسِيحِيِّ، وَمِنْ مَنْظُورِ اللَّهِ، لَيْسَ اللَّهُ مُلْزَمًا الْبَتَّةَ بِأَنْ يَتَرَأَفَ عَلَى أَحَدٍ. فَهُوَ غَيْرُ مُلْزَمٍ بِأَنْ يَتَرَأَفَ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ، نَاهِيكَ إِذْنًا عَنْ شَخْصَيْنِ. وَإِنْ تَرَأَفَ عَلَى وَاحِدٍ، فَهَذَا لَا يَعْني أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَرَأَفَ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ عَلَى آخَرَ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ النِّعْمَةُ الْزَامًا، فَهِيَ لَا تَعُودُ بَعْدُ نِعْمَةً، بَلْ تَصِيرُ عَدْلًا.

عَلَى أَيِّ حَالٍ، الْقَضَايَا الَّتِي أُثِيرَتْ فِي هَذَا الْجَدَلِ شَبُهَ الْيِلَاجِيِّ رَكَزَتْ عَلَى عَقِيدَةِ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ وَعَلَاقَتِهَا بِجُرِيَّةِ الْإِرَادَةِ وَالْحَقِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ. فَبِحَسَبِ اتِّبَاعِ كَاسِيَانُوسَ، يَضْعُفُ تَعْلِيمُ أَوْغُسْطِينُوسَ عَنِ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ مِنْ قُوَّةِ الْكَرَّازَةِ، وَيُؤَدِّي إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْقَدْرِيَّةِ.

كُلُّ مَنْ عَلَّمَ اللَّاهُوتَ الْأَوْغُسْطِينِيَّ سَمِعَ هَذَا الْإِعْتِرَاضَ مِرَارًا. فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ قَضَى مِنْذُ الْأَزَلِ بِأَنْ يُخَلِّصَ الْبَعْضَ دُونَ آخَرِينَ، أَفَلَا يَفْضِي ذَلِكَ عَلَى الْكَرَّازَةِ وَعَلَى الْهَدَفِ مِنْهَا؟

أَتَذَكَّرُ أَنِّي كُنْتُ فِي فَصْلِ كَلِمَةِ اللَّاهُوتِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ، وَكَانَ الْأُسْتَاذُ يَعْلَمُ عَقِيدَةَ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ، ثُمَّ قَالَ: "حَسَنًا، إِذَا كَانَ التَّعْيِينُ الْمُسَبِّقُ صَاحِبًا، فَلِمَ يَجِبُ أَنْ نَكْرِرَ؟" ثُمَّ طَرَحَ هَذَا السُّؤَالَ عَلَى جَمِيعِ الْحَاضِرِينَ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ الْجَوَابَ. وَأَخِيرًا، وَصَلَ إِلَيَّ، وَكُنْتُ أُرْتَجِفُ فِي مَقْعَدِي، فَقُلْتُ: "لَا أَعْرِفُ". ثُمَّ قُلْتُ: "رُبَّمَا هُنَاكَ سَبَبٌ وَاحِدٌ بَسِيطٌ يَدْعُونَا، رَغْمَ ذَلِكَ، إِلَى الْإِنْخِرَاطِ فِي الْكَرَّازَةِ، وَهُوَ أَنَّ الْمَسِيحَ، فِي الْأَسَاسِ، أَوْصَانَا بِذَلِكَ". فَرَدَّ الْأُسْتَاذُ مَبْهُوتًا: "أَجَلٌ، وَأَيُّ سَبَبٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَتَّفَقَ مِنْ أَنْ يُوصِيَنَا الرَّبُّ الْإِلَهَ كُلِّي الْقُدْرَةَ وَخُلِّصَ نَفُوسَنَا بِفِعْلِ شَيْءٍ مَا! فَعَدَا ذَلِكَ، مَا مِنْ سَبَبٍ آخَرَ". وَبِهَذَا وَبَحْنِي أَمَامَ الْجَمِيعِ، وَلَنْ أَنْسى ذَلِكَ مَا حَبِثَ.

لَكِنَّ الْفِكْرَةَ هِيَ أَنْ لَدِينَا بِالْفِعْلِ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ. وَمَهْمَا كَانَتْ عَقِيدَةُ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ الَّتِي نَتَّبَعُهَا، فَهِيَ يَنْبَغِي أَلَّا تُوهِنَ الْبَتَّةَ مِنْ عَزْمِ الْكَنِيسَةِ عَلَى إِطَاعَةِ الْإِرْسَالِيَّةِ الْعُظْمَى بِالْمُنَادَاةِ بِالْإِنْجِيلِ الْمُقَدَّسِ لِكُلِّ الْحَقِيقَةِ. وَفِي الْوَاقِعِ، أَنَا مُتَحَمِّسٌ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ، عَالِمًا بِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِالْأَلَّا تَرْجِعَ كَلِمَتُهُ إِلَيْهِ فَارِعَةً. كَمَا يَسْرُنِي أَنْ أَعْلَمَ بِأَنَّ تَأْثِيرَ الْإِنْجِيلِ فِي النَّهَائِيَّةِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيَّ، أَوْ عَلَى إِمْكَانِيَّاتِي، أَوْ فَصَاحَتِي، أَوْ ذَكَائِي، بَلْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالْحُصَادِ. قَالَ بُولُسُ: "أَنَا عَرَسْتُ وَأَبْلُوسُ سَقَى، لَكِنَّ اللَّهَ كَانَ يُنْمِي". لَكِنَّ عَلَى أَيِّ حَالٍ، كَانَ هَذَا هُوَ التَّحْفُظُ أَنْذَاكَ لَدَى شَبُهَ الْيِلَاجِيِّينَ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ.

كَذَلِكَ، رَأَى هَؤُلَاءِ أَنَّ مَنْظُورَ أُوعُسْطِينُوسِ عَنِ التَّعْيِينِ الْمُسَبِّقِ بِهِ نَوْعٌ مِنَ الْمُبَالَغَةِ. أَيُّ إِنَّهُ مَنْظُورٌ أَقْوَى مِمَّا يَلْزَمُ لِذَخِصِ الْبِيلاجِيَّةِ. رُبَّمَا أَتَّفَقَ مَعَ هَذَا. لَكِنِّي أَتَّفَقُ أَيْضًا مَعَ مَنْظُورِ أُوعُسْطِينُوسِ، وَلَا أَرَى أَنَّهُ مُبَالَغَةٌ. لَكِن مِّن الصَّوَابِ قَطْعًا أَنَّنَا لَمْ نَكُنْ مُضْطَرِّينَ لِلتَّمَادِي إِلَى الْحَدِّ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أُوعُسْطِينُوسُ مِنْ أَجْلِ رَفْضِ الْبِيلاجِيَّةِ. فَحَقًّا هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْبِيلاجِيَّةِ وَالشَّبْهِ بِيلاجِيَّةِ.

تَخْتَلِفُ شَبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ عَنِ الْبِيلاجِيَّةِ فِي الْآتِي: تَدَكَّرُوا أَنَّ بِيلاجِيُوسَ عَلَّمَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِسُقُوطِ آدَمَ أَيُّ تَأْثِيرٍ عَلَى الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ، بَلْ إِنَّ سُقُوطَ آدَمَ أَثَّرَ فِي آدَمَ وَحْدَهُ. وَلَمْ يَحْدِثْ انْتِقَالَ لِلذَّنْبِ، أَوْ فُقْدَانًا لِلقُدْرَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، أَوْ سُقُوطِ حَقِيقِيٍّ فِي جَوْهَرِ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ نَتِيجَةً لِسُقُوطِ آدَمَ. نَقُولُ شَبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ: "كَلَّا، بَلْ حَدَثَ سُقُوطِ حَقِيقِيٍّ، وَصَارَ الْبَشَرُ فَاسِدِينَ. وَنَحْنُ نُؤَلِّدُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْفَسَادِ. وَقَدْ ضَعُفَتْ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ، لِذَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ بِاسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ أَنْ يَصِيرَ بَارًّا، أَوْ أَنْ يُفْتَدَى، بِدُونِ النِّعْمَةِ". فِي هَذَا الْأَمْرِ، تَخْتَلِفُ شَبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ تَمَامًا عَنِ الْبِيلاجِيَّةِ الْبَحْثَةِ، الَّتِي تَقُولُ إِنَّ النِّعْمَةَ يُمَكِّنُ أَنْ تُسَاعِدَ، لَكِنَّهَا غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِلخَّلَاصِ. بَلْ تَقُولُ شَبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ إِنَّ النِّعْمَةَ ضَرُورِيَّةٌ.

لَكِنَّهَا تَقُولُ أَيْضًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مَيِّتًا بِالذُّنُوبِ وَالخَطَايَا بِحَيْثُ لَمْ تَعُدْ لَدَيْهِ آيَّةُ قُدْرَةِ أَخْلَاقِيَّةِ. بَلْ لَا تَزَالُ لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ، فِي طَبِيعَتِهِ السَّاقِطَةِ، سِوَاءَ عَلَى التَّعَاوُنِ أَوْ عَدَمِ التَّعَاوُنِ مَعَ نِعْمَةِ اللَّهِ. يُعْطِي اللَّهُ نِعْمَتَهُ لِلْجَمِيعِ. وَهِيَ تُسَاعِدُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارِ الصَّائِبِ بِالْمَجِيءِ إِلَى الْمَسِيحِ، وَالاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ اللَّهِ. إِذَنْ، يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْجَمِيعَ، وَيُعْطِيهِمْ إِمْكَانِيَّةَ الْخُلَاصِ لِلْجَمِيعِ. لَكِن فِي النِّهَايَةِ، خُلَاصُ الْإِنْسَانِ مِنْ عَدَمِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى ذَرَجَةِ تَعَاوُنِ ذَلِكَ الْخَاطِئِ السَّاقِطِ مَعَ مَا يُسَمَّى نِعْمَةِ اللَّهِ الْمُسَبِّقَةِ، أَيُّ تِلْكَ النِّعْمَةِ الَّتِي تَسْبِقُ الْقَرَارَ. وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يَمْنَحُ الْخُلَاصَ لِلْجَمِيعِ، فَهُوَ إِذَنْ يُعَيِّنُ الْجَمِيعَ. لَكِنَّ الْبَعْضُ يَقُولُ: "نَعَمْ"، وَالْبَعْضُ يَقُولُ: "لَا". وَالَّذِينَ يَقُولُونَ "نَعَمْ" يَخْلُصُونَ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ "لَا"، بِنَاءً عَلَى إِرَادَتِهِمْ الضَّعِيفَةِ -لَا إِرَادَتِهِمْ الْمَيِّتَةَ - يَهْلِكُونَ.

دَعُونِي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ فِي كَنِيسَتِنَا وَمُجْتَمَعِنَا الْيَوْمَ، شَبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ -لَيْسَ الْبِيلاجِيَّةِ، لِأَنَّ الْبِيلاجِيَّةَ هِيَ مَنْظُورُ الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمَانِيِّ، بَلْ الشَّبْهُ بِيلاجِيَّةٍ - هِيَ الرَّأْيُ السَّائِدُ فِي الْكَنِيسَةِ الْيَوْمَ، وَلَيْسَ الرَّأْيُ الْأُوَعُسْطِينِيِّ. لَكِن بِالتَّأَكِيدِ، دَحَضَ الرَّأْيُ الْأُوَعُسْطِينِيُّ الرَّأْيَ الْبِيلاجِيَّةَ يَقُولُهُ إِنَّ الْجَدَلَ يَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ مَا إِذَا كَانَتْ لَا تَزَالُ لَدَى الْإِنْسَانِ نَوَاءً أَسَاسِيَّةً مِنَ الْقُدْرَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، كَيْ يَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى التَّجَاوُبِ مَعَ النِّعْمَةِ، سِوَاءَ لِلتَّعَاوُنِ أَوْ عَدَمِ التَّعَاوُنِ مَعَهَا.

وَمَوْطِنُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأُوَعُسْطِينِيَّةِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ وَشَبْهُ الْبِيلاجِيَّةِ هُوَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ مَا نُسَمِّيهِ "مُونَرْجِيزْمُ" (monergism) و"سِينَرْجِيزْمُ" (synergism)، فِيمَا يُخَصُّ التَّجْدِيدَ، أَوْ إِحْيَاءَ النَّفْسِ، أَوْ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ إِلَى الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ.

في المصطلح "مونوجيزم"، البادئة "مون" تعني "واحدًا" - mono - مثل monorail وmonoplane وmonoplay، وغيرها - ومعناها "واحد". ونعرف معنى "erg". erg هي وحدة العمل، وهي جزء من كلمة "energy" أو "طاقة". إذن، كلمة "مونوجيزم" تعني "عملًا واحدًا". ففي العمل المونوجيستي، يقوم شخص واحد فقط بالعمل. فهو ليس عملاً مشتركاً أو تعاونياً، لكنه عمل أحادي يقوم به طرف واحد. هذا هو معنى "مونوجيزم".

في المصطلح "سينرجم"، البادئة "سين" تأتي من الكلمة اليونانية "سون"، ومعناها "مع". وهي تُدكرنا بكلمة "synagogue" أو "مجمع"، حيث يجتمع الناس معاً. كما نتحدث عن عمل "synchronizing" لساعاتنا، أي مزامنتها معاً. ونتحدث عن "synonyms"، أي مرادفات، حيث تحمل كلمتان المعنى نفسه. إذن، البادئة "سين" - س-ي-ن- معناها "مع". ثم الجذر نفسه "erg" معناه "العمل". إذن، المعنى هنا هو "العمل معاً"، أو "عمل مشترك"، أو "تعاون". وما هي "الأوبرا"؟ كلمة "أوبرا" تعني "أعمالاً". فإن شغلت شيئاً، فإنك تجعله يعمل.

إذن، الفكرة هي أن الله يعطي هذه النعمة، ويتهيأها للجميع. والإنسان في حاله الساقطة يختار إما أن يتعاون مع تلك النعمة أو يرفضها. إن منح النعمة هو فعل يقوم به الله بنفسه، لكن تأثيرها على الإنسان، بحسب شبهه البيلاجية، يتحدد من خلال استعداده لقبولها، أو التعاون معها، أو العمل معها.

عارض أوغسطينوس ذلك، وقال إن تحرير الإنسان الساقط يتحقق بعمل الروح القدس، و فقط بعمل الروح القدس. ففي المرحلة الأولى من عملية إحيائنا في المسيح، نكون سلبين تماماً. والله وحده هو من يقيمنا من الموت إلى الحياة. لكن تقول شبه البيلاجية إن هذا عمل مشترك. ويستمر الجدل، لأن أوغسطينوس قال إن لدينا إرادة حرة، لكننا بلا حريّة. وبالتالي، ليست لدينا القدرة الأخلاقية حتى على قبول عرض الله بالمساعدة. لكن تقول شبه البيلاجية: "لسنا أمواتاً بالخطايا، لكننا فعلياً نعاني من مرض خطير. ولا يزال لدينا قدر لم يتأثر من القوة، نستطيع به، وعلى الرغم من ضعفنا، أن نمد أيدينا ونتعاون مع النعمة".

هذا متصل بشكل مباشر بمسألة التعيين المسبق. علم أوغسطينوس بأنه منذ تأسيس العالم، قضى الله، بحسب قصده، وبحسب مسرة مشيئته، بأن يخلص البعض. ثم في المكان والزمان، تدخل ليقتادهم إلى الخلاص. لكن تبني كاسيان رآياً عن التعيين المسبق مبنياً على المعرفة المسبقة. فالله كان يعلم منذ الأزل أنه سيقدّم النعمة المخلصة للجميع. وكان يريد أن يتعاون الجميع معها ويخلصوا. لكنه علم مسبقاً بأنه ليس الجميع سيقبلون العرض. وعلم مسبقاً من سيفول "نعم" ومن سيفول "لا". إذن، بحسب معرفته المسبقة، نظر الله عبر الزمن، ورأى مسبقاً من سيتعاون مع النعمة ومن لن يتعاون معها. وعلى أساس تلك المعرفة، اختار أن يخلص الذين سيتعاونون، ولا يخلص الذين لن يتعاونوا. إذن، في النهاية، مع أن الاختيار هو عمل الله، لكن انضمام الفرد إلى المختارين أمر متروك بيد

الْفَرْدِ، بِحَيْثُ تَكُونُ لَهُ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ، وَهُوَ مَنْ يُقَرَّرُ إِنْ كَانَ سَيَخْلُصُ أَمْ لَا. لَكِنْ قَالَ أَوْغُسْطِينُوسُ إِنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ نَظَرَ عَبْرَ الزَّمَنِ، لِيَخْتَارَ الَّذِينَ عَلِمَ أَنَّهُمْ سَيَتَعَاوَنُونَ مَعَ النِّعْمَةِ، لَمْ يَكُنْ لِيَخْتَارَ أَحَدًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَيَرَى أَحَدًا يَتَعَاوَنُ مَعَ النِّعْمَةِ، بَلْ كَانَ سَيَرَى جُمْهُورًا مِنَ الْبَشَرِ لَا يَبْغُونَ التَّعَاوُنَ مَعَ النِّعْمَةِ.

إِذَنْ، بِحَسَبِ كَاسِيَانِ، صُعِفَتْ حُرْبِيَّةُ الْإِنْسَانِ بِفِعْلِ السُّقُوطِ، لَكِنَّهَا لَمْ تُفْقَدْ نِهَائِيًّا. أُدِينِ كَاسِيَانُ وَشَبَهُ الْبِيلاجِيَّةِ بِالْهَرَطَقَةِ فِي سِنُودِيسِ أُورَانْجِ (Synod of Orange) فِي عَامِ ٥٢٩.

سَتَرَى فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُقْبِلَةِ مَا حَدَثَ لَاحِقًا فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ. وَمِنَ الْمُفَارَقَاتِ أَنَّ الْكَنِيسَةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ أَدَانَتْ الْبِيلاجِيَّةَ، وَأَدَانَتْ شَبَهُ الْبِيلاجِيَّةِ. ثُمَّ فِي أَيَّامِ لُوثِرِ وَالْإِصْلَاحِ، أَدَانَتْ الْأَوْغُسْطِينِيَّةَ، مَا يَجْعَلُنَا نَتَسَاءَلُ مَا الْخِيَارَاتُ الْمُتَبَقِّيَّةُ. وَسَتَحَدِّثُ عَنَ ذَلِكَ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُقْبِلَةِ.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهسني الألم".